

الغزل بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم



كان للقصيد في الشعر العربي في العصر الجاهلي غالباً منهج محدد، يسلكه الشاعر، سواء أكان الشاعر مقلداً أم كان مبتكراً، فكانت القصيدة تبدأ بمقدمة غزلية، يتغزل فيها الشاعر بامرأة، يذكر اسمها وتعلق قلبه بها، ويصفها وصفاً حسياً أو معنوياً، ويلقب على أطلال ديارها يشكو حيراتها له، ويحيي ذكرياته معها في تلك الديار التي أغرت من ساكنيها، وسمي هذا مطلع القصيدة: «الوقوف على الأطلال».

وكان يفعل ذلك الشعراء الذين اشتهروا بالمجون، والذين اتصفوا بالعقل والزرانة، والشعراء الشباب، والشعراء الذين تقدمت بهم السن، فالشباب طريقة بن العبد يقول: لخولة أطلال ببرقة نهدم تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد والمجن امرؤ ليس يستوقف صاحبيه على أطلال محبوبته:

لما نيك من ذكرى حبيب ومزمل
يسقط التوى بين الدخول فحومل
والشيخ الهرم الذي نيف على الثمانين
زهير بن أبي سلمى يقول:
أمن أم أوفى دمنة لم تكلم؟
بحومانة السدراج المتللم
وقفت بها من بعد عشرين حجة
قلابا عرفت السدار بعد توهم
وهذا الغزل لم يكن تغزلاً يزوجه الشاعر دائماً، فقد يتغزل بها أو بغيرها، وغالباً ما يكون بغير زوجته، ضناً بها عن أن يتحدث عنها الناس. وكانت هذه الطريقة أسلوباً سلكه الشعراء في العصر الجاهلي، واستمروا عليه حتى بعد ظهور الإسلام، فالشعراء المخضرمون الذين استلموا ساروا على هذا النهج، وشعراء العصر الأموي لم يخرجوا عنه.. إلى أن لحق التجديد نهج الشعر في العصر العباسي، بعد معركة كلامية حامية بين من خرج على هذا النهج «الحديث» ومن يلي عليه «المحافظين».

وعندما جاء الإسلام بعقيدة جديدة على المجتمع الجاهلي، وبإخلاق سامية نبيلة، هذبت هذه العقيدة سلوك أفراد المجتمع، نتيجة تحريم الخمر، وطلب الحفاظ على العرض وغض البصر.. فلم يكن يد من أن يلتزم المجتمع بذلك في سلوك أفراد.

أما الشعراء، فقد قال الله تعالى عنهم في كتابه العزيز: «الشعراء يتبعهم الغافلون» ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟ وأنهم يقولون ما لا يفعلون «الشعراء: 224 – 226»، ومع ذلك، كان منهم شعراء مسلمون يؤدون دورهم الإعلامي، ويجاهدون بالكلمة المناقضة عن الإسلام والمسلمين، وقد استمروا على النهج الذي كانوا عليه: فكانوا يبدؤون قصائدهم بالغزل التقليدي، ويقفون على الأطلال، ولم يكن المسلمون يحاسبونهم على كل كلمة يقولونها في شعرهم، ولا يستنكر عليهم ذلك أحد: فهذا كعب بن زهير بن أبي سلمى كما تروي كتب الأدب والتاريخ، يلقي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدحه

ويعتذر إليه عما بدر منه من هجاء له وعن محاربه للإسلام بشعره، ويفتح قصيدته، على عادة شعراء الجاهلية بالوقوف على الأطلال، يل بالغزل مباشرة فيقول:
بانت سعاد فقمي اليوم منبول
متيم إثرها لم يقد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غصيص الطرف مكحول
هيفاء، مقبلة، عجزاء مدبرة
لا يشتكي قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتست
كأنه منهل يسالراح معلول
شجت بدّي شيم من ماء محتبة
صاف بأبطح أضحي وهو مشمول
فيا لها خلة قد سيط من دمها
فجع ولوع وإخلاف ونبديل
فما تدوم على حال تكون بها
كما تلبون في أتوايها الخول
وما تمسك بالوعد الذي وعدت
إلا كما تمسك النساء الجرايل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدها إلى الأباطيل
أرجسو واسل أن تدنو موئدها
وما لبث، أخال، الدهر تعجيل

أصمت سعاد بارض لا تلتفها
إلا العنقاك الخجيبات المراسيل
فهو يصرح بذكر اسم المرأة التي يتغزل بها، ويصف جمالها وأخلاقها الحسنة وعاداتها، فهي هيفاء عجزاء مكحولة العين ذات صوت أغن، معتدلة القوام، وتعد وتختلف، وتكون وتلقب.. أوصاف جسدية ومعنوية.

والرسول صلى الله عليه وسلم يستمع إليه، فلا ينهره ولا يردعه! وابن يلقي كعب قصيدته هذه؟ إنه يلقبها بين يدي الرسول عليه السلام، وفي مسجده وبعد صلاة الفجر، ويروي هذه القصيدة ابن هشام في سيرته في الصفحة 153 من الجزء 4، كما يرويها ابن كثير في تاريخه «البدية والنهاية»، في الصفحة 370 من الجزء الرابع، مقدماً لها بقوله: وجاء به رجل من جهة بينة وبينه معرفة فعدا به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح، فصلى مع رسول الله ثم أشار له إلى رسول الله، فقال، هذا رسول الله، فقم إليه فاستأذنه، وقام فجلس إلى رسول الله، ووضع يده في يده، والرسول لا يعرفه.

وقد يقول قائل: إن كعباً نظم هذه القصيدة

وهو جاهلي، وقبل أن يسلم، ولا يعرف أحكام الإسلام.

ولكن الحقيقة أن كعباً لم يكن يجهل مفاهيم الإسلام، فقد كان يهجو الرسول والمسلمين، وشردت الرسائل بينه وبين أخيه المسلم بجير مرات، كما أن للمشركين كانوا يعرفون مفاهيم الإسلام ومواقفه الأخلاقية.. وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن الرسول عليه السلام لم يعنفه على ما قال في مطلع قصيدته، ولم يرشده إلى التخلي عن ذلك، بل يورد ابن كثير، أن الرسول صلى الله عليه وسلم تبه الصحابة إلى بيت كعب:

ثبتت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مامول
فاشار رسول الله إلى من معه «أن اسمعوا»
ويروي أن الرسول تدخل في صياغة بعض أبيات القصيدة فعندما قال كعب:
مهذب من سيوف الهند مسلول
فساله الرسول: ألا يصح.. من سيوف الله؟
قال: بلى.
وهذا يدل على أن الرسول عليه السلام، لم يعترض على أبيات المقدمة، واستمع إليها مع كثرة أبياتها!

وحسان بن ثابت شاعر الرسول، الذي نافع بشعره عن الإسلام وعن الرسول، له قصيدته الهزمية، التي تنصير ديوانه، ويرويها كاملة ابن هشام في سيرته «في الصفحة 43 من الجزء الرابع»، فيما قيل من شعر في يوم الفتح، كما يذكرها ابن كثير بتمامها «في تاريخه في الصفحة 310 من الجزء الرابع»، ولا يتورع أي منهما عن ذكرها في كتابه، وهذه القصيد يبدؤها حسان بوصف الأطلال ثم بالغزل فيقول:
عفت ذات الأصابع قالجواء
إلى عذراء منزلها خلاء
فدع حسداً، ولكن من لطيف
يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعشاء الخبي قد ثيمته
فليس لقلبي منها شفاء
عدمتها خيلنا إن لم شروها
تشير المنعع موعدها كداء
فحسان في هذه الأبيات لم يكلف بالوقوف على أطلال شعواء بل تغزل بها، فطيفها بؤرقه، ولا شفاء لقلبي منها.. ويزيد على ذلك أنه يذكر أربعة أبيات يتحدث فيها عن الخمر.

وقد يقول قائل: هذه المقدمة ليست جزءاً

من قصيدة حسان في مدح الرسول وفتح مكة، إنما هي مقدمة لقصيدة أخرى من شعر حسان في جاهليته، انتقلت في الوزن والقافية والروي وحركته، مع القصيدة التي تحدث فيها عن فتح مكة.

ولكن ما بلغت النظر أن ديوان حسان لا يحتوي على قصيدة هزمية أخرى بهذه المواصفات، وكذلك لم يشر جامع الديوان ولا ابن هشام ولا ابن كثير إلى انفصال المقدمة عن بقية القصيدة، كما أن العالين الجليلين ابن هشام وابن كثير، لم يعلقا على القصيدة بقدر أو يعيب أو أي إشارة إلى تناقض هذه المقدمة مع أحكام الإسلام، فكانهما نظرا إليها من الناحية البيانية والشعرية، على أنها شيء مألوف ومعروف ومعق عنه في أوساط الأدب والأدباء، فلا يثير عندهم شيئاً من الاستنكار. ولذلك يستغرب المرء الآن أن يجد من يستنكر إلغاء الشعر في المسجد أو ولم تكن قصيدة حسان السابقة هي الوحيدة التي يفتتحها بالمقدمة الطويلة والغزل، بل هناك قصيدة أخرى أوردها ابن كثير «في الصفحة 361 من الجزء الرابع»، في ما كان من أمر الانصار وتأخرهم عن الغنينة بعد حصار الطائف.

قال حسان:

ذر الهموح، فماء العين منحد
شحاً إذا حفلته عيرة درر
وجدا يشماء إذ شفاء بهتة
هيفاء لا ذنن فيها ولا خور
دع عنك شماء إذ كانت مودتها
نزرًا، وشر وصال الواصل التذر
وأتت الرسول، وقل يا خير مؤتمن
للمؤمنين إذا ما عدد البشر
فهو يأخذ الوجد يشماء، وهي بضاعة دقيقة الخصر ما فيها ضعف ولا فتور. وهذا كله بعد غزوة الطائف في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يعترض عليه رسول الله ولا الصحابة، ولم يستنكر ذلك منه ابن كثير صاحب التفسير والحافظ للحديث والفقيه السلفي، وأورد ذلك في كتابه.

ولو كانت كتب التاريخ تروي كل القصائد كاملة لوجدنا لكثير من قصائد الشعراء المخضرمين مقدمات طليقة غزلية، ولكن الغالب على هذه الكتب أن تذكر من القصيدة الأبيات التي لها علاقة بالحدث المصود، وكل هذا يدل على أن التفرغ إلى الأدب والشعر خاصة، كانت غير متشردة، وفيها تساهل لا تجده مع النصوص الثورية، ولعل ذلك داخل في باب فهمهم لغول الله تعالى عن الشعراء: «وأنهم يقولون ما لا يفعلون» «الشعراء: 226»، وأنهم يتكلمون إليه من غير تزيين له وإغراء به.

رفيف

أنتِ اخضَرَارُ الحَلَمِ
في شَفَةِ هَضَابٍ رَاكُضَةٍ لِلْغَيْمِ
في هُمُصَةٍ دَعَاءٍ عَطُشَانٍ مَا صَادَفَ خَيُوطِ
لِاسْتِجَابَةٍ
أَوْ صَبَابَةٍ فِي دَمَاءِ شَاعِرٍ تَغْنِيهِ الْأَمَانِي حَزَنُ
شَارِدُ
وَمَا يَرْتَبِ يَتَكَيءُ فِي مَحَجَرٍ عَيُونُ الْكَلَامِ
لِعُتْمَةٍ صُدْرَ شَفُوقٍ لَوْ طَلِقَ لَكَ،
حِيرة انْفَاسَةٍ عَلَى أَوْرَاقِهِ تَلَاشِي،
فِي سَرَابِكُ هُوَ سَرَابِكُ لَوْ سَرَابِكُ،
فِي هَزِيْعِ اللَّيْلِ كَانَ ابْتِلَ ظَامِي،
كَلِمًا يَبْتَلِ كِبْدَةً مَن عَذَابَةٍ،

يَطْلُقُ اللَّحْنَ لِعَصَافِيرِهِ وَيُغْنِي بِصَوْتِهِ
الرُّقْرَاقُ وَيُنَادِي صَبَاحَكُ،
يَنْكَسِرُ لَحْنُهُ وَيَنْبَتُ لِلقَوَافِي ،
صُبْعٌ يَتَلَمَسُ عَلَى نَوْتَةٍ غِيَابِكِ ،
حيرة المَعْنَى وَيَلْقُظُ صَوْتَ رَاعِي
عَادَ يَسْتَجِدِّي طَرِيقَهُ مِنْ أَفْوَلِكِ يَنْسَلُ
الرَّيْحُ لِمَدَائِنَتِهِ الْقَدِيمَةِ
يَمْطَرُ الْحَبْرُ وَيَمْرَجُ صَدْرُ غَيْمَةٍ
لِلجَفَافِ اللَّيِّ طَعْنُ وَرْدَةٍ خَدُودِكَ،
وَيَتَسَاءَلُ : كَيْفَ مَا سَالَتْ حُرُوفُهُ مِنْ فَمِكَ،
مَنْ عَلِمَكَ بِأَنَّ القَوَافِي جُدِبَ تَزْرَعُ سَائِلِينَ،
تَطَاوُلَ الشَّكُّ وَتَوَرَّقَ رِيْبَتُهُ، تَسْمَرُ اللَّيْلُ



بَجَفْنُ تَقْطِيبَتِهِ، شَبَّهُ انْكَسَارَ وَأَنْكَسَارَهُ مَا
تَبِينُ، مَا لَمَحَهُ وَيُشِيرُ مِنْ أَضْوَاءِ بَاكِرِ
شَمْعَةٍ تَسْهَرُ وَبِالِدَاخِلِ ظَلَامَةٍ، حَالِكٍ يَرْخِي
عَلَى الذِّكْرِى سَدُولُهُ

خالد الداودي